

الضابط حسن

رحيل ظالم

اندلعت الحرب العراقية الإيرانية عام ١٩٨١؛ وبناءً على طلبي التحقت فوراً بالقاعدة الجوية في البصرة، أمضيت فترة أكثر من شهرٍ كاملٍ دون رؤية أهلي وحبيبتي بغداد.

في أول إجازة لي لبغداد؛ وكما اعتدت أن أزور قريبي وصديقي الحميم الصائغ (ح.هـ) في محله الواقع في شارع النهر مركز تجارة الملابس والذهب في بغداد، هذا الشارع هو قلب بغداد النابض التجاري الحديث الذي يعجُ بالحياة والحركة، كل شيء فيه في تطور ونمو، ترتاده النساء الجميلات الساحرات اللواتي يرتدين آخر صيحات الموضة العالمية في مكياجهن الصارخ وحمرة شفاههن الحمراء الفاقعة، الشابات يتحركن برشاقة مثيرة مرتديات الميني جيب القصير جداً الذي يفضح سيقانهن الطرية، وأفخاذ النساء المكتنزات بحرية مطلقة، دون أن يسعين لإنزال تنوراتهن إلى الأسفل، وكأنهن بطريقة أو أخرى يسعين إلى إثارة شهية الفحول، وبجانبهن تسير النساء اللواتي يرتدين العباءة النسائية التقليدية العراقية اللماعة السوداء الطويلة التي لا تتنافس أبداً مع الميني جيب.

أما الشباب فيرتدون البنطلونات نوع (الجارلس) ذات النهايات العريضة جداً، يسيرون في الشارع وعيونهم ترنوا إلى أفخاذ النساء البضة الشهية الجميلة، كان العراقيون أحرار في الكثير من علاقاتهم وملبسهم وطريقة عيشهم وترفيههم، وخصوصاً البغداديين منهم، حيث كان المرء يجد ضالته في كثير من المطاعم ومحلات بيع المشروبات الكحولية والبارات المكيفة التي تصدح

فيها أغاني كوكب الشرق المطربة أم كلثوم، وصولاً إلى النوادي الاجتماعية والمهنية كنوادي المهندسين والأطباء وغيرها التي تتبارى فيما بينها لتقديم أفضل أنواع الطعام والشراب والخدمات العائلية والأمسيات الطربية، ناهيك عن الملاهي الليلية التي تنتشر في مناطق بغداد الراقية على أطراف ضاحية الكرادة والتي تتنافس بشدة لعرض خدماتها وعروض الفرق الراقصة، العربية منها والأجنبية وصولاً إلى الموائد العامة بالطعام الفاخر والنساء الجميلات.

قريبى (ح.هـ) رجل دمث الأخلاق طيب القلب كريم النفس، قصير القامة ممتلئ البدن دائب الحركة سريع البديهة، تاجر من نوع ممتاز رغم عدم امتلاكه لشهادة تعليم مدرسي، صديق صدوق وقت الشدائد يعشق الحياة والطرب والمغامرة.

ما أن تخطيت عتبة باب المحل الموارب قبل منتصف النهار حتى رأني وهباً واقفاً، محاولاً جهده الالتفاف حول منصدة عمله العتيقة المليئة بأنواع كثيرة من المصوغات الفضية والذهبية، وكذلك أنواع مسدسات الزينة القديمة التي تُستخدم في البيوت، حيث تُثبت على جدران المنازل لإظهار نوع من الترف والعظمة والهيبة لأصحاب البيت، هتف قريبى بصوته الجهوري المُميز الذي يكاد يخرق الأذان:

- يا أهلاً وسهلاً بابن عمي العزيز ملازم أول عباس.

كان دائماً ما يناديني مع رتبتي العسكرية أمام الآخرين، وأحياناً ما يناديني برتبة أرفع لأسباب في نفسه، يمكن أن تكون اعتزازاً بي أو غيرها، وفي جميع الأحوال كان هذا الرجل شجاعاً شهماً مقدماً لا يهاب شيء، كما أن له صلات طبية ببعض المسؤولين الذين يتكئ عليهم حينما تلم به الشدائد.

غالباً ما كان يدعوني ونخرج بعد انتهاء عمله إلى أماكن اللهو والترفيه والشرب والطرب، نجلس نتسامر نضحك ملئ قلوبنا نتحدث في كل شيء، وحين تنتهي جولتنا الليلية الصاخبة؛ والتي غالباً ما تنتهي في ساعات الصباح

الباكر، أقفل عائداً إلى بيتي، أو أذهب معه أحياناً إلى بيته فأنام عنده في انتظار إفطار رائع وأحاديث أروع من سيدة منزله الرائعة زوجته الطيبة (ع.ب).

اتخذت مكاني على أريكة ضيقة وغير مريحة في محله الصغير ولكنها مفروشة بسجاد من النوع الفاخر، فوراً نادى (ح.هـ) على بائع الشاي الذي مرّ لتوه من أمام المحل وطلب لي وله شاي مع الحليب، قائلاً ضاحكاً:

- هذا الشاي مع الحليب سيفيد صدرك ويقوي قلبك، لاسيما وأنت تقاتل على الجبهة وتقصف الأعداء....

هو يعلم جيداً أنني لا أطير إطلاقاً، بل أنا مهندس طائرات، لكنه وجميع العراقيين قد جُبلوا على تلخيص كل ما يخص عمل القوة الجوية بكلمتي الطيار والقصف، أحياناً أتعرض إلى حرج بسبب تكراره لهذا الموضوع ببراعة في حضرة البعض الذين يعرفون جيداً أنني لست بطيار، حينها أتدخل بمرونة لتصحيح الموضوع.

أخذنا الحديث عن أمور الحرب وأحوال البلاد، وأطلقت حنجرتي بحرية وسردت له عما جرى لي في فترة غيابي الطويلة نسبياً، أخبرته أنني طلبت الذهاب إلى البصرة، كما أخبرني هو عن أحوال العاصمة وأجواء الحرب وأصداءها فيها وصعوبة الحصول على بنزين السيارات، وأجواء الليل التي أصبحت ليست كما قبل، كما تحدثنا باختصار عن المغامرات مع النساء وخططنا اللاحقة.

وما نزال في لُجّة الحديث عن النساء وإذا برجل في أواخر الخمسينيات من عمره، أشيب الشعر طويل القامة لا اذكر اسمه يدخل علينا ورأسه مطأطأ، عيناه غائرتان في بحر أسود يحيط بهما، يلقي علينا التحية ويقف مشدوهاً ينظر إلينا دون أن يبصر شيء، يبدو أن عقله وفكره كانا بعيدان كل البعد عنا، يحاول الكلام مع (ح.هـ) ولكنه يعجز عن ربط الكلمات كي يجعل منها جملة مفيدة، وبذلك تخرج كلماته مبعثرة، كان علينا محاولة بذل جهد غير قليل

لإعادة تجميع عبارته حتى نفهمها، رجاه (ح.هـ) أن يجلس ففعل دون وعي واستقر إلى جانبي.

استرسلنا أنا وقريبي في حديثنا وهو ينصت بهدوء صامت، لكسر حاجز الصمت الذي أطبق على هذا الرجل طلب قريبي الشاي له وبادر بسؤاله عن أحواله وأحوال عائلته، وإذا بهذه الأسئلة تقع على الرجل كصاعقة حارقة من السماء تنزل على رأسه وتجعله ينتفض ويتوتر كمن صعق بتيار كهربائي عالي القدرة، وأخيراً استجمع قواه بعد أن بلع ريقه عدة مرات وقال:
- أرجوكم ساعدوني... ابني سيضيع مني.

قال قوله وسكت بعد أن ترقرت في عينيه دموع شفاقة صافية:
- وما الذي حلَّ بابنك؟
سأله قريبي فوراً...

- ابني أخذه جماعة الأمن وهو حالياً عندهم ولا أعرف ماذا أفعل ولا أجد من يساعدني، يا الله يا آدم أبو الفرج ' أعني على ما أنا فيه وأنقذ ابني من هذه الورطة.

قالها ولم يتمالك نفسه فأجهش بالندب الصامت، ترجيناه أن يهدأ كي نفهم منه ما الذي حدث وكيف السبيل إلى مساعدته... لم أكن أعرف ولم أرَ سابقاً هذا الرجل، فسألته بعد أن دهشت حقاً وراعني ما رأيت فيه من انهيار معنوي كامل وخوف كبير مما يمكن أن يحدث لابنه، وسألته بحذر شديد:
- ولماذا اعتقلوا ابنك يا عم؟

سكت بهدوء بعد أن سحبت قامتي إلى الخلف واتكأت على الجدار كي أفسح لقريبي إمكانية رؤيته وهو يتحدث.

- آدم أبو الفرج: شخصية مندائية نقية كان لها دور في نصره المندائيين ضد من تصدى لهم وهزيمتهم.

- يقولون إنه شيوعي وأنهم قد جاءوا إلى بيتنا وألقوا القبض عليه وهو بريء، أنا متأكد هو بريء، إنه طالب صغير العمر يافع ناعم العود ولا يفقه في السياسة شيء... إنه بريء.

قالها وبكى بحرقة فسقطت دمعاته ساخنة... لم أكن مهتمًا بالسياسة إطلاقًا ولم أحبها أبدًا، لا بل كنت وما أزال أمقتها، حيث أنني لم أبذل أي جهد للتدرج في مراتبها عكس ما كان يطمح له الكثيرون، وحتى أنني لم أكن أفقه فيها شيء سوى أنها فن التعامل مع الممكن.

- نعم يا أخي اهدأ قليلاً وسيكون الله إلى جانبك وسيفرج عن كربك وسينقذ ابنك من شدته.

شدد قريبي على كلماته الأخيرة، وهنا تشجعت وقلت له:

- يا عم ما دام ابنك لم يفعل شيء خطأ فسيخرج حراً قريباً ولا تبتئس وكن متفائلاً بعدالة الله، فتشجع وادعوا له بالفرج.

- من أين أستلهم الشجاعة وأنا محطم كلياً، ولا أعرف عن ابني شيء منذ عشرة أيام، هل أكل شيء، هل أعطوه شرباً، هل هو حي أم ميت؟ لا أعرف البتة... لا أعرف أي شيء عنه... لا شيء.

- أنت تقول يا عم أن ابنك ليست له أية علاقة بالشيوعيين، ولا أية علاقة بالسياسة من أصلها، فكيف يقبضون عليه بهذه التهمة؟

سألته عن قصد كي أعرف أكثر ما يمكن من معلومات عليه... تتم في سره وكأنه يدعو لابنه السلامة وبدأ حديثه:

- أنا متأكد أنه بريء ولكن المشكلة في كيفية الوصول إليه!! من يستطيع الوصول إليه وهو داخل سجن الأمن، هذا المكان الذي ترتعب من ذكر اسمه جميع نفوس العراقيين.

- يا عم اهدأ وتماسك وسأعمل على مساعدتك قدر استطاعتي...

وقلت:

- أبشر يا عم... لي صديق يعمل ضابط في الأمن العام اسمه (حسن) تربطني به صلة طيبة، فنحن نخرج ونسهر سوياً مع أصدقاء طيارين لي ومن ضمنهم أصدقاء مندائين من طائفتنا، سأعمل على الاتصال به فوراً عن طريق الهاتف وسأرى ماذا سيحدث وكيف يمكنه مساعدتنا في الأمر.

أخذت اسم الشاب السجين من والده وكتبته على قصاصة صغيرة احتفظت بها في راحة يدي، وعلى فوري رجوت (ح.هـ) أن يعيرني جهاز هاتفه فسلمني إياه، رفعت سماعة الهاتف، بهدوء أدت رقم البدالة كي أحصل على رقم مديرية الأمن ثم اتصلت بمديرية الأمن العامة، وبحزم العسكر رجوت عامل بدالتهم بعد أن أعطيته رتبتي واسمي الكامل أن يوصلني بالملازم حسن، والذي كانت مجموعتنا تلقبه (حسن بزون) ولا أعلم لماذا أطلقوا عليه هذه اللقب، ألقيت التحية على حسن، عرفته بنفسي وسألته عن صحته وأحواله وعمله، ومن ثم تحولت إلى الموضوع مباشرةً وقلت له:

- أخي حسن اتصل بك الآن كي أطلب منك خدمة صغيرة...

فقال:

- تفضل أخي عباس أنا تحت أمرك...

صمت فأضفت:

- أخي حسن لدي شخص قريب مني وهو شاب يافع بريء، تمّ اعتقاله من قبل جماعتكم، فأرجو مساعدتك على إيجاده وإعلامي كي أستطيع زيارته، ومن ثم نرى ما يمكن فعله لإطلاق سراحه من دائرتكم.

- وما هي تهمة ولماذا اعتقلوه؟

- يقول والده إنهم يدعون أنه شيوعي...

لم أكمل جملتي وإذا بي أسمع حسن يقول باضطراب واضح، بغير هدوء، وانزعاج بائن وبصوت بعيد نسبياً كأنه أبعد سماعة الهاتف عن أذنه وفمه:
- ما الذي تقوله يا عباس هل تريد أن تخرب بيوتنا؟!

وعندها ودون أية كلمات توديع أقفل خط الهاتف في وجهي، ولم أعد أسمع سوى: توت... توت... توت.

انتهت على هذا الشكل محادثتي مع ضابط الأمن حسن دون أي تقدم يذكر، ولم أحصل على أية معلومة تُهدئ من روع الأب، حصل كل هذا في حضرة والد الشاب المندائي الشيعي وعلى مسمع ومرأى قريبي.

لم أستسلم للواقع المرير ولم أبتئس لما فعله هذا (البزون)، وقلت للوالد المسكين الذي قدر كثيراً محاولتي الجدية لمساعدته بعد أن علم من قريبي أنني ضابط في القوة الجوية، وقلت له:

- يا عم سوف أذهب بعد غد إلى مديرية الأمن العامة وأرى ماذا أستطيع فعله كي أقابل ابنك، وسأعلمك بكل ما يحصل، ولكن أرجو منك أن تتماسك وتدعو لولدك بالنجاة، ولي بنجاح مهمتي.

الوالد المسحوق ينهض على طوله ينحني علي ويقبلني في جبهتي، ولا أعرف بماذا يتمتم في سره وقال:

- سوف أعرج غداً إلى هنا وسأجلب معي بعض الملابس الداخلية والطعام له، أرجو منك أن تأخذها له معك إن أمكنك ذلك.

أجبت:

- نعم طبعاً سأخذها وأدعو هي أن ألقاه وأعطيه الأغراض، وسأعمل قدر استطاعتي أن افعل شيء له.

على هذه الكلمات انتهى حديثي مع هذا العم لذلك اليوم واتفقنا على اللقاء مساء اليوم بعد التالي في محل قريبي، ومضى الرجل المسحوق يجر أقدامه من

الأرض جرّاً دون أي أمل له بالحياة، وكأن الدنيا أطبقت عليه من جميع الاتجاهات فتهالك مرة واحدة.

لقد عكرت صفونا هذه المحادثة الحزينة، وآلما وضع هذا الرجل البائس اليأس وانقلب مزاجنا رأساً على عقب، ولكن يا لطبيعة الحياة ومُستجداتها السريعة، إذ لم تمر ساعة واحدة إلا وكُنّا قد نسينا ما قلب مزاجنا وعادت معنوياتنا إلى صفوها وحالها الأول.

اتفقتُ وقريبي على سهرة الليل التي سنقضّ فيها في مطعم خان مرجان التراثي الرائع، الذي بُني عام ١٣٥٨ على يد (أمين الدين مرجان)، حيث كان نزلاً وساحة سوق ويقع في مدخل شارع البنوك، ليس بعيد عن كتف نهر دجلة العظيم حيث بُني وشيد وفق الطراز المعماري البغدادي القديم، تمّ تنفيذه بحرفية متناهية الجمال، يتميز بديكور الشناشيل البغدادية الجميلة ويتضمن فضاء واسع مفتوح تمّ هندسته بعناية فائقة، المطعم يقدم خدمات راقية حيث العمال يرتدون أزياء تراثية مميزة ويقدمون طعامهم التقليدي الفاخر، تلك الليلة الساحرة قضيناها على أنغام فرقة الجالغي البغدادي الرائعة.

مساء اليوم التالي زرت كعادتي محل (ح.هـ) بعد أن عرجتُ أولاً على محل والدي الطيب وأصدقاء طفولتي في خان الشاه بندر، حيث دعاني والدي الطيب لتناول وجبة الغداء الأسطورية المكونة من كُبة السراي ذائعة الصيت ورائعة المذاق مع الصمون (الخبز) العراقي الطازج والساخن التي أعشقها.

ما أن اتخذت مكاني في محل قريبي حتى دَسَّ في يدي كيس من البلاستيك يحوي على ملابس داخلية و(كليجة) عراقية (معجنات داخلها تمر)، وأغراض أخرى كان الرجل المسكين قد جلبها وسلمها له ظهراً، أخذتها منه، شكرته وواصلنا أحاديثنا الشيقة حول الحياة والحرب والسلام والنساء.

بعد سويغات مرحة أغلق قريبي أبواب محله وانطلقنا إلى نادي التعارف الخاص بأبناء طائفة الصابئة المندائيين، احتلينا مكان هادئ قرب منصة غناء

الفرقة الموسيقية التي عزفت ألحان غربية عالمية رائعة، احتسبنا العرق العراقي الرائق الذي يصبح لونه حليبي بعد مزجه بالماء المثلج مع أنواع عديدة من المازات، كخليط اللبن الخاثر الممزوج مع الخيار والثوم ونوع من السلطة المضاف إليها حبات اللبلي^١ وكذلك بعض المكسرات، سكرنا حتى بدت لنا الدنيا حلوة ورائعة ونسبنا الحرب والقنابل وجبهات القتال وكوارثها إلى الأبد، وأرحنا بالنال بالمرّة وكما يقول المطرب المصري الرائع (محمد عبد الوهاب) في أغنيته الشهيرة (انسى الدنيا وريح بالك).

نهضت ليس على عاداتي أثناء إجازتي مبكرًا، وكأني أستعد للذهاب إلى جبهات القتال، تناولت إفطاري من يدي أُمي الحنون، والمكون من الخبز البلدي المخلوط بالبيض المخفوق ويُسمى بالعامية (الدوك) مع بعض الخضار، شربت الشاي المضاف إليه الهيل الذي يعطيه مذاق رائع ورائح زكية، ارتديت ملابس عسكرية، نظرت إلى المرأة وتطلعت إلى نجماتي الذهبية الأربع، والأجنحة التي تجاوزها وهي تملأ كنفني بالكامل بإعجاب وفخر كبيرين، وهمست في نفسي أدعو من الله أن يُعينني على إنجاز مهمتي، وأن يساعدني كي أنقذ حياة هذا الشاب المندائي الشيعي المسكين... خطر على بالي الرحيل الظالم لابن خالتي الشاب الطيب البريء (عزيز بطيخ ساهي الدهيسي) الذي قام النظام الحاكم بإلقاء القبض عليه في الفترة نفسها وإعدامه لاحقًا بسبب انتمائه للحزب الشيعي، تألمت كثيرًا، إنما زادني ذلك عزمًا كي أسعى جاهدًا وأقدم أفضل ما عندي لإخراج هذا الشاب البريء

هَمَمْتُ بالخروج حينها، توجهتُ لوالدتي وطبعتُ قبلة حارة على جبهتها ورجوتها أن تدعو لي بالتوفيق في مهمتي، وضعت كيس الملابس تحت إبطي ونزلت سلم بيتنا الملتوي الطويل الذي يشبه أفعى الأناكوندا الجبارة، أوقفت

:- اللبلي: الحُمص المسلوق.

سيارة أجرة بعد أن أخبرته بوجهتي، وانطلقت السيارة كالسهم نحو مديرية الأمن العامة الواقعة في مركز بغداد مقابل القصر الأبيض.

كان السائق شاباً كثيف الشارب هزيل البدن أسمر البشرة لطيف المعشر حلو اللسان، بدا لي وكأنني أعرفه زمنًا، تحدثنا تمازحنا مما شجعتني أن أطلب منه أن يختار لنا أغنية مناسبة كي أرفع بها من مزاجي وأنسى للحظة مهمتي المستحيلة، فأخذ يقلب كاسيتات مسجل سيارته حتى وجد كاسيت المطربة السورية الرائعة (أسمهان) وهي تصدح بأغنية (يا بدع الورد يا جمال الورد)، سعدت معه بسماع صوت أسمهان الذي يدخل القلب دون استئذان، لحين ما رجوته بإيقاف السيارة بجانب القصر الأبيض الذي يقع على الجانب الآخر لمديرية الأمن العامة، ترجلت من السيارة، أخرجت محفظتي كي أنقذه حقه وإذا به يرفض استلام المال ويقول:

- أنتم يا سيدي تضحون بأرواحكم في سبيلنا كي نعيش هنا بسلام وأمان، فكيف لنا ألا نجازيكم احترامًا وخيرًا، اذهب محفوفًا بسلامة الله وحفظه.

حاولت معه كثيرًا إلا أنه رفض رفضًا قاطعًا، لقد أخرجني هذا الإنسان الرائع وأشعرنني أن الدنيا مليئة بالناس الأصلاء الخيرين، وكذلك أنساني قلقي مع الأمن العامة، شكرته كثيرًا على سمو أخلاقه ووطنيته العالية وتمنيته له الرزق الوفير والتوفيق والصحة الوافرة.

مضى سائق التاكسي وأنا مُتسمر في مكاني أنظر إلى بناية القصر الأبيض هذا المَعْلَم التراثي التاريخي العريق، الذي تمّ تشييده عام ١٩٣٤ في العهد الملكي، وتم افتتاحه من قبل الملك غازي الأول، وكان دار للضيافة يتم فيه استقبال ضيوف العراق من زعماء وملوك ورؤساء وغيرهم.

دخلت مقر مديرية الأمن العامة التي كان اسمها وما يزال يُفزع أكبر عراقي ويفقده صوابه، هذا الاسم مقرون بالقتل والتعذيب والدهاليز المظلمة التي تحصل فيها أنواع مُبتكرة لانتزاع الاعترافات، وكذلك اغتصاب النساء، ولقد

ارتبط اسمها باسم (ناظم كزار) الذي هو من أبشع الجزارين في تاريخ العراق، وهو مديرها في زمن الرئيس أحمد حسن البكر بُعيد انقلاب السابع عشر من تموز ١٩٦٨، علماً أن ناظم كزار قاد محاولة انقلابية عام ١٩٧٣ للإطاحة بنظام الحكم، إلا أن محاولته فشلت وتم إعدامه على أثرها.

ما أن أسير متر حتى يسألني أحدهم إلى أين فأجيبه أن لدي سجين وأرغب بزيارته، فيسمح لي بالتقدم متر واحد، وهكذا حتى وصلت مكتب الاستعلامات، عندها توقفت ورجوت المسؤول بالسماح لي بزيارة هذا الشاب وأعطيته ورقة تحمل اسمه الكامل، كما أخبرته أن لدي أغراض أود تسليمها له، بعيون قط مخضرم نظر إليها بتمعن كبير، بعد أن توسعت عيناه وطلب مني اتخاذ أحد الكراسي والانتظار.

كانت الساعة تُشير إلى التاسعة صباحاً، مرت ساعة كاملة ولم يشير إليّ مسؤول الاستعلامات بأي شيء، وأنا كتمثال من عصر الفراغة أجلس في مكاني وأنتظر، سئمتُ فما كان مني إلا أن نهضت وتوجهت نحوه وسألته إذا ما كان قد نسيني، أجاب بكلمة لا، فعدت إلى مكاني.

الوقت يمضي ببطء قاتل شديد، تمر ساعة ثقيلة وتحل محلها ثانية أثقل وتمضي الثالثة كريحة والقلق يلفني بالكامل ولا يدعني أخذ نفسي براحة، أنا أنتظر، وأنتظر، ما أن يهْم المسؤول أن يتكلم حتى أقوم بتركيز كل انتباهي تجاهه، عساه أن ينادي علي ولكن لا صوت سوى الفراغ... "يا إلهي أنر الطريق لي واجعل قلوبهم تخفق بالعطف كي أنقذ حياة هذا الشاب البريء، أقولها وأكررها في سري".

مرت أربع ساعات وأنا مُتسمر كشجرة ضاربة جذورها في الأرض عميقاً أجلس على كرسي خشبي غير مُريح، فكرت في نفسي أن أسأل عن صديقي الملازم حسن، وعدت وأخرجت هذه الفكرة من رأسي، إذ قام هذا الصديق بإغلاق سماعة الهاتف بوجهي حال ما سمع بكلمة الشيوعي.

بعد وهلة خرج أحد أفراد الأمن ونادى باسمي، قلت جاء الفرج فتقدمت منه بسرعة، سألني عن الأغراض التي كانت ما تزال بحوزتي فأعطيتهأ له وقلت له هل سأتي معك لأراه أجنبي بكلا، إلا أنه أضاف أنه سيحرص على إيصال الأغراض له، وطلب مني الجلوس والانتظار... جلست وفوضت أمري لله.

كنت شابًا مندفعًا مفعمًا بشعور الوطنية الحقة والولاء للوطن، وتطغى على سلوكي ملكة إبداء المساعدة للآخرين دون مقابل، حتى وإن كنت أتوقع الأخطار من جراء فعل ذلك، لم أحفل بأي من تلك المخاطر إطلاقًا، لم أدرك آنذاك أن الدنيا تسير ليست حسب ما أعتقد وأفكر أنا، إنما تسير وفق منظور السلطة وقادتها وما يروه هم.

انتظرت طويلًا ولم يسمح لي أي أحد بلقاء هذا الشاب المسكين في حين بدأ صبري ينفذ شيء فشيء، حرارتي أخذت بالارتفاع الافتراضي بسبب انزعاجي الكبير، أفكار غريبة عجيبة بدأت تراودني وتأخذ مني مأخذ، هنا تذكرت جيدًا كلام الملازم حسن حين قال (هل تريد أن تخرب بيوتنا) وفهمتها بامعان.

وصلت عقارب الساعة الرابعة عصرًا وأنا كطفل تركه أهله ونسوه، أتألم من حسرتي على نفسي أولاً، وقلة الاهتمام التي جوبهت بها والتي أدت إلى جرح كبير في كبريائي، وأيضًا من حسرتي الثانية على حياة هذا الشاب الغض صغير السن، وكذلك من حسرتي الثالثة على ماذا سيحصل لوالد هذا الشاب المسكين حين أخبره بما جرى، نعم لقد وقعت في مأزق كبير دون دراية بما سينتج عنه وعلي أن أتحمّل نتائجها مهما كانت ولست بنادم إطلاقًا.

أحاول تشتيت تركيزي وأجول بفكري نحو اللحظات الأولى التي تعارفتُ فيها على أول فتاة روسية في مدينة كييف الأوكرانية عام ١٩٧٣، وتدعى (روزا)، وكانت بالفعل اسم على مُسمى، فتاة في ريعان شبابها ترفل بجمال طاغي، طويلة القامة رشيفة ذات وجه مستدير كأنه قمر مستدير، وخدان مكتئزان بلون شقائق النعمان وشعر أشقر لماع سحري يأخذ العقل، طويل ينسدل على كتفيها

براحة واطمئنان حتى يتجاوز مرتفعات نهديها الشامخين نحو خصرها الدقيق، حين تبتسم تتفرج شفاتها المخبضبتان كالورد، حتى يطلق فمها عطرًا وعبق يحيل أي ذكر إلى أجزاء مُبعثرة.

مساء ذلك اليوم كنت أسير مع صديقي رحيم في الشارع الذي يخترق متنزه حدائق كبير يطل مباشرة على نهر الدنيبر العظيم، ويؤدي إلى المرقص الصيفي المكشوف الخاص بالشباب بعد أن أنعشنا مزاجنا بكأس من الكونياك الأرمني الشهير مع القهوة، كانت هي تسير مع صديقتها بنفس الاتجاه، ما أن رأيناها وبطريقة الشرقيين حتى قام كل منا باختيار واحدة لنفسه، وكأنه أجرى معها توافيق عقد زواج رسمي.

تقدمنا نحوهما بلطفٍ بالغ وتعارفنا دون عناء، معهما اتجهنا نحو المرقص، رقصنا على الموسيقى الروسية السريعة التي لم نكن نجيدها، ثم بدأت الموسيقى البطيئة حتى التحمت الأجساد والشفاه وغارت الأيدي إلى أماكن مجهولة تبحث عن مقاصدها، أسقطت في أذنها كلمات عن الحب كنت تعلمتها توافيق فضحكت وصححتها لي، فما كان مني إلا أن أتحدى بشجاعة أكبر وأدعوها إلى التنزه خارج المرقص فوافقت على الفور.

أمسكت يدها التي ذابت بين يدي بينما سرت في جسمي رعشة قوية لنعمومتها وطرأوتها، سرنا نحو ضفة نهر الدنيبر الذي يشق مدينة كييف إلى نصفين، كنت أجول بنظري وأبحث عن مكان مناسب كي أفرض سطوتي العاطفية عليها دون أن تظهر بنا عيون المارين الحاسدة، لم أجد مكاناً مناسباً سوى القاعدة المكشوفة من جوانبها، والتي يقف عليها نصب الشاعر الأوكراني الشهير (تاراس شيفجينكا) وينتصب شامخاً كأنه آلهة أبدية تحرس النهر الخالد، في سابقة هي الأولى في حياتي أحسست بطعم قبلة الفم، كالتى كنا نشاهدها في الأفلام المصرية مثل (أبي فوق الشجرة) للممثل الرائع عبد الحليم حافظ

والممثلة الجميلة نادية لطفي، وما زال طعم رضاها في فمي، كما شعرتُ بتدويرة الأتداء الطرية.

الأمر في مديرية الأمن العامة تجري بشكل سيء ولا بد من اتخاذ أقصى درجات اليقظة، إذ لا يمكن التكهن بما يمكن أن يحصل لي ولهذا الشاب، أناجي نفسي وأقول إنهم يقومون بإهانة إنسانيتي بهذه الطريقة، فيا ترى ماذا عساهم يفعلون بهذا الشاب الصغير؟ لكن ما العمل! لا شيء سوى الانتظار.

الجو خانق وثقيل ومُكهرب والكل في حذر قاتل، الناس في هذا المكان على اختلافهم وحذرهم ثلاثة أنواع، الأول من يقبع تحت الأرض في أقبية وزنانات هذه المديرية المظلمة لا يعرف معنى النور ولا يرى بصيص أمل في الحياة، فهو منسي ولا يمت للحياة بصلة، والنوع الثاني من يعمل فيها وهو أيضاً حذر من أية زلة كلام قد تُرسله دون مشقة إلى مكان تواجد النوع الأول، فهو أداة تعذيب آلية لا أكثر، والنوع الثالث من أهل الله كما يُقال عنهم مثلي حيث لا ناقة لي ولا جمل في كل هذه اللجة، يبدو أن الكل في هذا المجتمع ضحية، الضحية ضحية والجلاد أيضاً ضحية، ولكن شتان ما بين الاثنين.

كل لحظة كانت تمر عليّ كأنها دهر حالك السواد، نهضت إذ بدأت قدماي بإيلامي بعد طول فترة جلوسي وقلة الحركة، ملابسي العسكرية أصبحت رطبة وشبه مبللة لحرارة الجو وتأثير الانتظار النفسي القاسي عليّ، مرة جديدة توجهت بالسؤال إلى مسؤول الاستعلامات الذي بدا وكأنه يراني لأول مرة ويجيبني بهدوء مُر وقاتل، عندها أدركت أن ما يحصل هو عبارة عن مسرحية تراجيدية بطلها أنا وليس غيري، وأنهم غير معنيين إطلاقاً بما جئت من أجله وهم يراهنون على قلة صبري وضعف حيلتي، وهذا حسب رأيي أفضل من أي إجراء آخر يقومون به ضدي.

لقد سقطت الرحمة والإنسانية من جدول حسابات من يعمل في هذا الموقع اللعين لذا أسقطتهم من اهتمامي، قلت في سري (اللجنة على الظالمين في كل

زمان ومكان) توكلت على الله بعد أن سلمت أمري له، حملتُ جسدي المتعب ونهضت بعد أن رسمت بصعوبة بالغة شبح ابتسامة على وجهي، أخبرت المسؤول بأنني ذاهب وشكرته على عمله، رفع حاجبيه إلى الأعلى زمَّ شفثيه دون أن ينطق بكلمة ومضيت.

إن كان أحد يسألني عن شعوري آنذاك فأجيبه بسهولة أنني كنت في قمة التعاسة والحزن والخذلان، كوني لم أستطع إنقاذ أو على الأقل تقديم الدعم المعنوي لهذا الشاب الطري العود الذي لم أعرف مصيره، لم أحفل بعدد ساعات الانتظار الشاقة ولا بإحساس الحرج والإهانة التي أصابت كبريائي بمقتل، ولكني سأوفر على نفسي ذلك العناء وسأخرج طوعاً من هذه المديرية اللعينة مخذولاً دون نصارة بعدما دخلتها مزهواً بلمعان نجماتي الأربع مع أجنحتها، التي لم تعن أبداً على التحليق والطيران كي أقابل هذا الشاب وأمد له يد العون، لقد علمتني هذه التجربة القاسية الكثير ولكنها لن تحد من مساعي لتقديم أي مساعدة إنسانية إذا ما تطلب موقف لاحق ما.

غادرت مديرية الأمن العامة والشياطين تلبسني، غاضب ألّهث وعرقى يتصبب مني غزير، فالتعب والتحسب وسقم الانتظار وبعض الخوف قد فعلوا فعلتهم في، باختصار لقد أوضح قادة الأمن في الدولة لي دون كلمات مباشرة ألا أتدخل أبداً في مثل هذه الأمور الخطيرة، إنها من اختصاصهم وحدهم فقط دون غيرهم.

الجو حار جداً والشمس الحارقة كأبليس تجلد رأسي بسياط أشعتها اللاهبة دون رحمة، أشرتُ إلى سيارة أجرة توقفت في الحال، اتفقت مع سائقها وانطلق بها نحو البيت... أجلسُ في مقعدي الأمامي أطأطئ رأسي وأفكر صامتاً أقلبُ أفكارى، لم أفهم ما الذي جرى وما يدور حولي.

عدتُ خائباً إلى بيتي الواقع في ساحة السباع العظيمة، دخلت البيت ألقيت التحية على أُمي الحنون بعد أن أخذ الجوع والعطش ومشاهد مسرحيتهم الحزينة

مأخذاً في جسدي وضميري، نزلت عني ملابسني العسكرية التي أصبحت مُبللة تماماً، دخلت على فوري إلى الحمام كي أنتعش في ماءه وأغسل ما علق بي من أدران الأمن، وأنسى بعض مما حصل لي، لكن الماء كان ساخناً جداً بحيث لم أتمكن من الاستماع بدوش كامل، خرجت مُسرّعاً أتمتع في نفسي وألعن كل هذا النحس الذي صادفني طوال اليوم.

مددت يدي إلى الطعام الشهوي الذي جلبته لي أُمي وأكلت قليلاً دون رغبة كبيرة كأن نفسي قد عافت الطعام، رأيتني أُمي مهموماً منكس الرأس، سألتني عن نتائج مهمتي فترددت في الإجابة، ويبدو أنها بفطرتها ومعرفتها بي قد فهمت فلم تلح عليّ وغيرت موضوع الحديث، ولكن كلماتها وقعت في نفسي وأشعرتني بنوع من الاستقرار والطمأنينة.

ارتديت ملابسني المدنية التي كانت حسب موضّة ثمانينيات القرن الماضي بسرعة هائلة، واتجهت مباشرة إلى محل قريبي، لم يستغرق الذهاب إلى شارع النهر طويلاً، وأعود مرة أخرى إلى شارع النهر هذا المكان الجميل الساحر حيث يتنافس فيه المارة مع السيارات لتكون خليط غير متجانس، ولاحقاً تمّ منع مرور السيارات وخصّص للمشاة فقط، كمثّل شوارع المشي في عواصم الدول المتقدمة، وبذلك أصبح أكثر جمالاً وأفضل تنظيماً وأكثر هدوء.

شارع النهر عامر بمحلات صياغة وتجارة المصوغات الذهبية والفضية، حيث يوجد أمهر صاغة العراق الذين تنتج أيديهم الماهرة أرقى أنواع القطع والتحف الفنية الذهبية والفضية المزخرفة والملونة بمادة المينا، والتي تحمل صور وأشكال تاريخية مُستوحاة من تراث العراق وحضارته، مثل تمثال أسد بابل وطاق كسرى وبوابات بابل وغيرها، وتستمدّ كذلك مادته من بيئته الخلابة مثل النخيل وبيوت الأهوار، كما تعج هذه المنطقة بالسواح الأجانب القادمون من كل أرجاء الدنيا والذين يقدرّون ويعشقون هذا الفن الأصيل وبيتاعون هذه القطع النادرة.

دخلت المتجر الصغير لقريبي والذي يقع على زاوية الشارع الموصل بين شارع النهر مع شارع الرشيد التراثي، وإذا بالرجل المسكين والد الشاب المسجون يقفز طائراً بعد أن كان في حديث جدي مع صديقي، على ما بدا كان النقاش بينهما ينصب على ما سيحصل معي، ألقى التحية بهدوء الأمراء وبقيت واقفاً انظر لعينيهما مباشرة، وبدأت بإخبارهما ما حصل معي بالتفصيل الممل، وتامماً كما حصل معي وقلت بأسى:

- يا عماء لم ألتق بابنك مع الأسف، ولكني سلمت كيس الأغراض بيد أحدهم الذي وعدني بإيصالها له، نعم إن ابنك في مديرية الأمن العامة، لم يسمحوا لي أن أقابله شخصياً، حاولت جهدي وللأسف لم أفلح، لقد انتظرت من الساعة التاسعة لغاية قبل ساعة دون نتيجة تذكر، لقد كانوا يسخرون مني حين جعلوني أنتظر طول هذه الساعات الثماني دون أية نتيجة...

أخفضت رأسي نحو صدري وتأسفت مرة أخرى... شكرني الوالد المسحوق على محاولتي رغم تحطم آخر بصيص أمل لديه تماماً وفوض أمره لله، هز رأسه لمرات إلى الأعلى والأسفل زاماً شفثيه بعنف، عاقداً حاجبيه بقوة بحيث ظهرت جميع خطوط تجاعيد وجهه بوضوح أكبر، بدا كأنه قد شاخ بسرعة فائقة خلال ثواني معدودات، نهض مكسور الجناح ومضى، ولم أره لاحقاً ولم أعلم عن مصير ابنه الشاب إطلاقاً.

مرّت السنون، نضجت تجربتي الحياتية والعملية وتوسعت آفاق أفكاري رغم عدم تغير مبادئ وأسلوب حياتي وطريقة تعاملتي مع الناس والأشياء، عندها فهمت أموراً لم أكن أفقها آنذاك، وهي أنني كنت وكأني أسير على حافة السكين بفعلي هذا، والذي بدأ من اتصالي الهاتفي بالملازم الأمني حسن حتى ذهابي للبحث ومساعدة أحد الشيوعيين، الذين كان النظام يعتبرهم أعداء وخونة وفق منظوره آنذاك...

وحيث إنني كنت مندائياً وضابطاً في نفس الوقت، وتحسب عليّ جميع تحركاتي، أولهما كمندائي تُحسب عليّ تهمة الانتماء للشيوعية كون العديد من أبناء هذه الطائفة كانوا قد انضموا إلى الحزب الشيوعي، وهذا ما أسبغ طائفتنا باللون الأحمر، ناهيك عن أول تقرير حزبي كان قد كُتب يفيد باحتمال انتمائي للحزب الشيوعي، وثانيهما كضابط فإنه من غير المقبول إطلاقاً من وجهة نظر السلطات أن أقوم بالدفاع عن شخص شيوعي مناوئ لها، لقد جمعت أنا كلا الصفتين وبذلك كان الموضوع غاية في الخطورة التي لم أدركها ولم أعرها أية أهمية، ولكن الله الحي العظيم ملك أكوان النور قد حماني وحفظني من كل مكروه.

لاحقاً وحتى بعد أن علمت بخطورة فعلتي هذه لم أتردد يوماً في مساعدة مظلوم أو بريء، أو أي شخص تظلمه الدنيا وتحاول أن تسحقه ماكينة القتل اليومي العنيفة.